الخطاب الصوفي وبناء الكفاءة اللغوية للمريد: دراسة تداولية في مختارات من التراث الصوفي الإسلامي.

مساحلي طاهر *
[1] جامعة امحمد بوقرة بومرداس
t.mesahli@univ-boumerdes.dz
مخبر TECLANG

الإرسال: 2026/06/20 القبول: 2026/07/09 النشر: 2026/09/15.

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف العلاقة بين الخطاب الصوفي وبناء الكفاءة اللغوية للمريد من خلال تحليل مدونة (corpus) من النصوص المرجعية في التراث الصوفي الإسلامي. وتنطلق الدراسة من أطروحة نظرية مفادها أن التصوف ينتج منظومة خطابية متكاملة، تسهم في تشكيل طرائق استعمال اللغة وإنتاج المعنى. وقد اعتمدت الدراسة مقاربة نوعية قائمة على تحليل الخطاب مدعومة بالتحليل التداولي والمعجمي، من خلال دراسة مدونة تضم كتاب «اللمع» للسراج الطوسي، و«الرسالة القشيرية» لعبد الكريم القشيري، و«إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي، و«عوارف المعارف» لشهاب الدين السهروردي. وتبين نتائج التحليل أن الخطاب الصوفي يطوّر أنماطاً خاصة من الممارسة اللغوية تقوم على ضبط التلفظ، وتنظيم العلاقات التخاطبية، وبناء معجم اصطلاحي متخصص، وتوسيع إمكانات التأويل الرمزي، بما يسهم في تنمية الكفاءة التداولية والتأويلية للمريد داخل الجماعة الصوفية. وتخلص الدراسة إلى أن أثر الخطاب الصوفي في بناء الكفاءة اللغوية لا يقتصر على تنمية المهارات التعبيرية، بل يمتد إلى تشكيل أنماط استعمال اللغة وإنتاج المعنى داخل سياق تربوي وروحي متكامل.

* **مساحلي طاهر**.

الكلمات المفاتيح: الخطاب الصوفي، الكفاءة اللغوية، المريد، التداولية، التراث الصوفي الإسلامي.

Sufi Discourse and the Development of the Disciple's Pragmatic-Linguistic Competence: A Pragmatic Analysis of Selected Texts from the Islamic Sufi Tradition

Abstract: This study investigates the role of Sufi discourse in the construction of the disciple's linguistic competence through a pragmatic analysis of selected texts from the Islamic Sufi tradition. It is based on the assumption that Sufism produces a coherent discursive system that shapes language use and meaning-making processes within the Sufi community. The study adopts a qualitative analytical approach combining discourse analysis, pragmatics, and lexical analysis. The corpus consists of selected passages from *Al-Lumaʿ*, *Al-Risāla al-Qushayriyya*, *Iḥyāʾ ʿUlūm al-Dīn*, and *ʿAwārif al-Maʿārif*. The findings show that Sufi discourse develops specific linguistic practices centered on regulating speech, structuring communicative interaction, constructing a specialized lexicon, and fostering symbolic interpretation. The study concludes that Sufi discourse contributes significantly to the development of the disciple's pragmatic and interpretive competence through continuous discursive and pedagogical practice.

Key words: Sufi discourse; linguistic competence; disciple; pragmatics; Islamic Sufi heritage.

1- مقدّمة:

شهدت الدراسات اللسانية خلال العقود الأخيرة تحولات إبستمولوجية عميقة نقلت الاهتمام من اللغة بوصفها نسقاً بنيوياً مجرداً إلى اللغة باعتبارها ممارسة اجتماعية وثقافية تتشكل داخل سياقات الاستعمال الفعلية. وقد أسهمت مقاربات تحليل الخطاب واللسانيات الاجتماعية والتداولية في توسيع مجال البحث اللغوي ليشمل المؤسسات الثقافية والدينية والتربوية التي تنتج أنماطاً مخصوصة من التواصل وإنتاج المعنى. ومن هذا المنظور لم يعد الخطاب يُنظر إليه بوصفه مجموعة من الجمل أو البنى اللغوية المعزولة ، بل باعتباره ممارسة اجتماعية تتداخل فيها المعرفة والسلطة والهوية والقيم الرمزية ، وتسهم في تشكيل أنماط الإدراك والتفاعل داخل الجماعات البشرية[1].

وفي هذا السياق ، حظيت الخطابات الدينية باهتمام متزايد في الدراسات اللغوية المعاصرة ؛ نظراً لدورها في بناء المعنى الجماعي وتنظيم العلاقات الرمزية داخل المجتمعات الثقافية والدينية. فاللغة في الخطاب الديني لا تؤدي وظيفة إخبارية أو تعليمية فحسب ، بل تشارك في بناء الهوية الجماعية وتشكيل التصورات والقيم والممارسات الاجتماعية. ولهذا اتجهت العديد من الدراسات الحديثة إلى تحليل الخطاب الديني بوصفه فضاءً لغوياً وثقافياً تتقاطع فيه الأبعاد المعرفية والتواصلية والتأويلية[2].

ويُعدّ التصوف الإسلامي أحد أكثر المجالات ثراءً من الناحية اللغوية والرمزية داخل التراث الإسلامي ، إذ طوّر عبر تاريخه الطويل منظومة معجمية وتأويلية معقدة ارتبطت بالتجربة الروحية وبمسارات التكوين التربوي للمريد. وقد أسهمت هذه المنظومة في إنتاج خطاب يتميز بكثافة الرمز والإشارة والاستعارة ، كما يتميز بخصوصية في استعمال اللغة وتنظيم العلاقات التخاطبية داخل الجماعة الصوفية ؛ ولذلك اكتسبت اللغة الصوفية أهمية خاصة في الدراسات الفكرية والأدبية والدينية التي سعت إلى فهم آليات التعبير عن التجربة العرفانية وحدود اللغة في تمثيل الخبرة الروحية[3].

وقد تناولت الأدبيات السابقة التصوف من زوايا متعددة ؛ حيث ركزت الدراسات التاريخية والفكرية على نشأة التصوف الإسلامي وتطوره المفاهيمي وعلاقته بالسياقات الحضارية والفكرية المختلفة ، مع الاهتمام بالمفاهيم المركزية مثل الزهد والولاية والمعرفة والمحبة والفناء والبقاء[4]. بينما اهتمت دراسات أخرى بتحليل التجربة الصوفية من منظور فلسفي أو ديني ، وسعت إلى تفسير البنية المعرفية التي تحكم الخطاب الصوفي وموقعه داخل الثقافة الإسلامية.

وفي هذا الإطار، كشفت دراسات متخصصة عن الأبعاد الرمزية والروحية للخطاب الصوفي، وأبرزت الدور المركزي للغة في التعبير عن الخبرة العرفانية وفي بناء الرؤية الصوفية للعالم[5].

ومن الناحية اللسانية، تثير النصوص الصوفية إشكالية العلاقة بين اللغة والتجربة الروحية، وبين الممارسة الخطابية وعمليات بناء المعنى داخل الجماعات المعرفية. وقد بيّنت المقاربات التأويلية والسيميائية أن المعنى في الخطاب الصوفي لا يُختزل في الدلالة المباشرة للألفاظ، بل يتولد من تفاعل معقد بين النص والسياق والقارئ وآليات التأويل الثقافي والمعرفي[6].

أما الدراسات اللسانية الحديثة فقد بدأت تدريجياً في توظيف أدوات تحليل الخطاب والتداولية واللسانيات الاجتماعية لدراسة الخطابات الدينية بصفة عامة. غير أن حضور الخطاب الصوفي داخل هذا الاتجاه ظل محدوداً نسبياً مقارنة بخطابات دينية أخرى، كما أن معظم الدراسات المتاحة ركزت على الأبعاد الرمزية أو المفاهيمية للنصوص الصوفية دون التعمق في الوظائف التداولية والمعجمية التي تؤديها الممارسات الخطابية الصوفية في تشكيل أنماط الاستعمال اللغوي وإنتاج المعنى داخل الجماعة الصوفية[7].

ويكتسب هذا البعد أهمية خاصة في ضوء التصورات الحديثة للكفاءة اللغوية. فبينما ارتبط مفهوم الكفاءة اللغوية في بداياته بالمعرفة الضمنية بالقواعد اللغوية، وسّعت اللسانيات الاجتماعية هذا المفهوم ليشمل القدرة على استعمال اللغة استعمالاً ملائماً داخل السياقات الاجتماعية والثقافية المختلفة[8]. كما أُضيفت إلى هذا المفهوم أبعاد تداولية واستراتيجية وتواصلية جعلته أكثر قدرة على تفسير الممارسات اللغوية الواقعية داخل الجماعات الاجتماعية والمعرفية[9].

وانطلاقاً من هذا التصور الموسع، تستعمل الدراسة الحالية مفهوم الكفاءة اللغوية للدلالة على مجموع القدرات التداولية والتواصلية والتأويلية التي يكتسبها المريد من خلال انخراطه في الممارسات الخطابية الصوفية، وما يرتبط بها من تعلم للرموز والمصطلحات وقواعد التخاطب وآليات التأويل.

ومن جهة أخرى، انصرفت الدراسات الأدبية والبلاغية إلى الكشف عن الخصائص الأسلوبية والجمالية للنصوص الصوفية، فركزت على الرمزية والاستعارة والصورة الشعرية

وعلاقة اللغة الصوفية بالشعرية العربية. وقد أظهرت هذه الدراسات أن النص الصوفي يشتغل وفق نظام تعبيري خاص يتجاوز الدلالة المباشرة نحو مستويات أعمق من الإيحاء والتأويل ، الأمر الذي جعل الخطاب الصوفي حقلاً خصباً للبحث في العلاقة بين اللغة والتجربة الروحية[10].

كما استفادت دراسات أخرى من المقاربات السيميائية والتأويلية في تحليل النصوص الصوفية ، فاهتمت بوظائف الرمز والإشارة وبناء المعنى داخل الخطاب العرفاني ، وبالعلاقة بين ظاهر النص ومستوياته التأويلية المتعددة. وقد أبرزت هذه الدراسات أن فهم النص الصوفي يقتضي امتلاك كفاءة تأويلية تسمح بتجاوز المعنى المباشر نحو المعاني الضمنية والرمزية التي تؤسس خصوصيته الخطابية[11].

وتجمع هذه الدراسات على اختلاف منطلقاتها المنهجية ، على أهمية اللغة في بناء التجربة الصوفية وإنتاج المعنى ، غير أنها انشغلت أساساً بالأبعاد الفكرية والرمزية والجمالية للنصوص الصوفية ، ولم تتناول بصورة مباشرة الوظائف التداولية والتواصلية التي تؤديها الممارسات الخطابية في تكوين المريد وبناء كفاءته اللغوية.

وتكشف مراجعة الأدبيات السابقة عن وجود فجوة بحثية تتمثل في محدودية الدراسات التي تناولت العلاقة بين الخطاب الصوفي وبناء الكفاءة اللغوية للمريد من منظور تداولي وخطابي. فمعظم البحوث السابقة انشغلت بالمحتوى الفكري أو الرمزي أو التاريخي للتصوف ، بينما لم تحظَ الممارسات الخطابية الصوفية بوصفها آليات لتشكيل الكفاءة التداولية والتأويلية بالاهتمام الكافي. كما لم تتناول الدراسات المتوافرة بصورة مباشرة دور الخطاب الصوفي في بناء الكفاءة اللغوية للمريد اعتماداً على مدونة صوفية كلاسيكية محددة تجمع بين تحليل الخطاب والتحليل التداولي والتحليل المعجمي.

ومن هنا تنطلق هذه الدراسة لمحاولة استكشاف الكيفية التي يسهم بها الخطاب الصوفي في تنظيم الممارسة اللغوية ، وبناء المعجم المتخصص ، وتطوير القدرات التأويلية والتداولية للمريد داخل الجماعة الصوفية.

وانطلاقاً من هذه الفجوة ، تسعى الدراسة إلى الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

كيف يسهم الخطاب الصوفي في بناء الكفاءة اللغوية للمريد من خلال ممارساته التداولية وآلياته التأويلية داخل التراث الصوفي الإسلامي؟

ويتفرع عن هذا السؤال عدد من التساؤلات الفرعية:

1. ما الخصائص التداولية التي تميز الخطاب الصوفي في النصوص المدروسة ؟
2. كيف يسهم المعجم الصوفي في بناء أنماط خاصة من التواصل وإنتاج المعنى ؟
3. ما دور الرمز والإشارة والتأويل في تشكيل الكفاءة التأويلية للمريد ؟
4. كيف تسهم الممارسات الخطابية الصوفية في بناء الكفاءة التداولية داخل الجماعة الصوفية ؟

وتستمد هذه الدراسة أهميتها من سعيها إلى الربط بين التراث الصوفي الإسلامي والدراسات اللسانية المعاصرة من خلال توظيف أدوات تحليل الخطاب والتداولية لفهم الوظائف اللغوية والمعرفية التي يؤديها الخطاب الصوفي ، كما تسعى إلى الإسهام في توسيع مجال الدراسات اللسانية العربية المتعلقة بالخطابات الدينية ، وإبراز الأبعاد التواصلية والتأويلية الكامنة في التراث الصوفي الإسلامي.

2. الإطار النظري للدراسة.

2-1- اللغة بوصفها ممارسة اجتماعية وخطابية:

شهدت اللسانيات المعاصرة تحولاً ملحوظاً في طبيعة الأسئلة التي تطرحها حول اللغة ، حيث لم يعد الاهتمام مقتصراً على دراسة البنية اللغوية المجردة ، بل امتد إلى استكشاف اللغة في سياقات استعمالها الاجتماعية والثقافية. وقد أسهمت مقاربات تحليل الخطاب في ترسيخ هذا التحول من خلال التركيز على العلاقة بين اللغة والسلطة والمعرفة والهوية ، وإبراز الدور الذي تؤديه الممارسات الخطابية في بناء الواقع الاجتماعي وإعادة إنتاجه[12]. ومن هذا المنطلق يُنظر إلى الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية تتجاوز حدود التراكيب اللغوية لتشمل أنماط التفكير والتفاعل والقيم التي تنتجها الجماعات البشرية داخل سياقاتها الثقافية المختلفة.

وتكتسب هذه الرؤية أهمية خاصة عند دراسة الخطاب الصوفي ، لأن النصوص الصوفية لا تعمل باعتبارها وسائط لنقل المعرفة الروحية فقط ، بل تمارس دوراً تكوينياً في بناء شخصية المريد وتوجيه سلوكه وتشكيل رؤيته للعالم. فاللغة داخل المجال الصوفي تصبح جزءاً من العملية التربوية ذاتها ، إذ تُستخدم لإنتاج المعرفة الروحية ونقلها وتثبيتها داخل الجماعة الصوفية[13].

2-2- الكفاءة التداولية وإنتاج المعنى:

يرتبط مفهوم الكفاءة التداولية بالقدرة على استخدام اللغة بصورة ملائمة للسياقات الاجتماعية والتواصلية المختلفة ، بما يتجاوز مجرد المعرفة بالقواعد النحوية والمعجمية. وقد نشأ هذا المفهوم في إطار الانتقادات الموجهة إلى التصورات البنيوية التي حصرت الكفاءة اللغوية في معرفة النظام اللغوي ، بينما أكدت الاتجاهات التداولية والتواصلية أهمية فهم شروط الاستعمال الفعلي للغة داخل المجتمع[14].

وفي هذا السياق ، يرى هيمز أن الكفاءة اللغوية لا تكتمل إلا إذا امتلك المتكلم القدرة على معرفة متى يتكلم ، وكيف يتكلم ، ولمن يتكلم ، وفي أي سياق يتم التواصل. وقد طوّر كانال وسوين هذا التصور من خلال مفهوم الكفاءة التواصلية الذي يجمع بين المعرفة اللغوية والمعرفة التداولية والاجتماعية[15].

كما تؤكد التداولية الحديثة أن المعنى لا يُنتج بواسطة الألفاظ وحدها ، بل يتشكل من خلال التفاعل بين المتكلم والمخاطَب والسياق الذي يتم فيه التواصل. ولذلك اكتسبت نظريات الأفعال الكلامية أهمية كبيرة في تفسير الكيفية التي تُنجز بها اللغة وظائف اجتماعية ومعرفية تتجاوز مجرد نقل المعلومات[16].

وانطلاقاً من هذه الخلفية النظرية ، تنظر الدراسة إلى الخطاب الصوفي بوصفه فضاءً لتكوين الكفاءة التداولية لدى المريد ، من خلال تعليمه آداب الخطاب ، ومهارات الإنصات ، وفهم الإشارات الضمنية ، واكتساب القدرة على تأويل المعاني وفق مقتضيات المقام والسياق الروحي.

2-3- جماعات الخطاب والمعجم المتخصص:

يُعد مفهوم جماعات الخطاب من المفاهيم المركزية في الدراسات الخطابية المعاصرة ، إذ يفترض أن الجماعات المعرفية والاجتماعية تطور أنظمة تواصل خاصة بها تتجسد في مجموعة من القواعد الخطابية والمصطلحات والمرجعيات المشتركة. وقد بيّن سوايلز أن جماعات الخطاب تتحدد بامتلاكها أهدافاً مشتركة وآليات تواصل متخصصة ومعجماً اصطلاحياً يسمح بتداول المعرفة بين أعضائها[17].

وتُظهر الأدبيات اللسانية اللاحقة أن المعجم المتخصص لا يمثل مجرد مجموعة من المصطلحات التقنية ، بل يشكل أداة لتنظيم المعرفة وإنتاج الهوية الجماعية والمحافظة على استمرارية الممارسات الثقافية داخل الجماعة[18]. ومن هذا المنظور يمكن النظر إلى الجماعة الصوفية باعتبارها جماعة خطابية تمتلك منظومة اصطلاحية خاصة تسهم في تنظيم التواصل ونقل الخبرة الروحية.

ويتجلى ذلك في الحضور المكثف لمفاهيم مثل: الحال ، والمقام ، والفناء ، والبقاء ، والقبض ، والبسط ، والذوق ، والمشاهدة. فهذه المفاهيم لا تُستخدم بمعانيها اللغوية العامة ، بل تكتسب داخل الخطاب الصوفي دلالات اصطلاحية مرتبطة بالتجربة العرفانية وبالمسار التربوي للمريد[19].

2-4- خصوصية الخطاب الصوفي:

يتميز الخطاب الصوفي بخصوصية لغوية ودلالية جعلته موضوعاً لاهتمام العديد من الباحثين في مجالات التصوف والأدب واللسانيات. وتتمثل إحدى أبرز خصائصه في اعتماده المكثف على الرمز والإشارة والاستعارة بوصفها وسائل للتعبير عن خبرات روحية يصعب تمثيلها باللغة المباشرة[20].

وقد بينت الدراسات الحديثة أن اللغة الصوفية لا تقتصر على الوظيفة الجمالية أو البلاغية ، بل تؤدي أدواراً معرفية وتربوية عميقة. فالرموز والإشارات ليست أدوات تعبيرية فقط ، وإنما تشكل آليات لإنتاج المعنى ونقل الخبرة الروحية وإدماج المريد في المنظومة المعرفية للجماعة الصوفية[21].

كما تكشف النصوص الصوفية عن اهتمام واضح بمفاهيم الصمت والذكر وآداب الكلام والمحاسبة والتأويل ، وهي جميعاً ممارسات خطابية تؤدي دوراً محورياً في عملية التكوين الروحي واللغوي للمريد. ولذلك فإن دراسة الخطاب الصوفي من منظور تداولي وخطابي تسمح بفهم وظائفه التواصلية والتربوية بصورة أكثر شمولاً مما تتيحه المقاربات التاريخية أو البلاغية التقليدية[22].

3- الإطار المنهجي

3-1-نوع الدراسة:

تنتمي هذه الدراسة إلى البحوث النظرية التحليلية ذات الطابع النوعي ، وتهدف إلى استكشاف الوظائف التداولية والخطابية للغة داخل التراث الصوفي الإسلامي. ولا تسعى الدراسة إلى اختبار فرضيات تجريبية أو قياس متغيرات ميدانية ، وإنما تركز على تحليل النصوص وتفسير أنماط إنتاج المعنى والممارسات الخطابية التي تتضمنها. وينسجم هذا التوجه مع طبيعة البحوث النوعية التي تهتم بفهم الظواهر الثقافية والخطابية في سياقاتها الطبيعية بدلاً من إخضاعها للقياس الكمي المباشر[23].

3-2- مدونة الدراسة (Corpus):

اعتمدت الدراسة على مدونة نصية مكونة من أربعة مؤلفات تعد من أبرز النصوص المؤسسة للتصوف الإسلامي السني ، وهي:

- اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي.
- الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري.
- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.
- عوارف المعارف لشهاب الدين السهروردي.

وقد وقع اختيار هذه النصوص لكونها تمثل مراجع مركزية في البناء النظري والتربوي للتصوف الإسلامي ، فضلاً عن اشتمالها على مادة خطابية ثرية تتناول اللغة وآداب الكلام والتأويل والتواصل الروحي داخل الجماعة الصوفية[24].

3-3- منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة أساساً على منهج تحليل الخطاب بوصفه إطاراً يسمح بفهم العلاقة بين اللغة والسياق الاجتماعي والثقافي الذي تُنتج داخله النصوص. ويهدف هذا المنهج إلى الكشف عن الوظائف المعرفية والتربوية والتواصلية التي تؤديها الممارسات الخطابية داخل الجماعات المتخصصة[25].

كما تستفيد الدراسة من بعض أدوات التحليل التداولي، ولا سيما ما يتعلق بالأفعال الكلامية، وإنتاج المعنى الضمني، وشروط التخاطب، إضافة إلى التحليل المعجمي الذي يسمح بدراسة الحقول الدلالية والمفاهيم الاصطلاحية المهيمنة في مدونة الدراسة (corpus).

3-4- إجراءات التحليل:

تم تنفيذ عملية التحليل وفق الخطوات الآتية:

- تحديد المقاطع النصية المرتبطة باللغة والكلام والصمت والذكر والتأويل.
- تصنيف الوحدات الخطابية وفق وظائفها التداولية والتربوية.
- استخراج المصطلحات الصوفية المركزية وتصنيفها ضمن حقول دلالية متجانسة.
- تحليل آليات إنتاج المعنى داخل النصوص المدروسة.
- تفسير النتائج في ضوء مفاهيم تحليل الخطاب والكفاءة التداولية وجماعات الخطاب.

وتهدف هذه الإجراءات إلى الكشف عن الكيفية التي يسهم بها الخطاب الصوفي في بناء الكفاءة اللغوية للمريد، وإبراز الآليات الخطابية والتأويلية التي تعتمدها النصوص الصوفية في تحقيق هذا الهدف[26].

4- نتائج التحليل ومناقشتها:

4-2- ضبط اللسان بوصفه استراتيجية تداولية في الخطاب الصوفي:

أظهرت قراءة مدونة الدراسة (corpus) أن مسألة ضبط اللسان تحتل موقعاً محورياً في البناء التربوي للخطاب الصوفي. فقد أولت النصوص المدروسة عناية خاصة للكلام وآدابه، وربطت بين سلامة السلوك الروحي وحسن استعمال اللغة. ويتجلى ذلك في كثرة الإشارات إلى الصمت، ومراقبة القول، واجتناب اللغو، وتحري ملاءمة الخطاب للمقام، وهي موضوعات تتكرر بصورة واضحة في المؤلفات الصوفية المؤسسة[27].

ومن الشواهد الدالة على ذلك ما أورده القشيري في باب الصمت بقوله: «الصمت سلامة وهو الأصل، والسكوت في وقته صفة الرجال، ومن نطق في غير وقته أتى بالعجائب»[28]. كما يورد السراج الطوسي أن الصوفية «كانوا يعدّون الكلام من جملة الأعمال، كما يعدّون الصمت من جملة الأعمال»[29].

وتكشف هذه الشواهد أن الصمت في التصور الصوفي لا يمثل امتناعاً سلبياً عن الكلام، بل يُقدَّم باعتباره ممارسة تداولية واعية تضبط العلاقة بين المتكلم والسياق. فعبارة «السكوت في وقته» تحيل إلى مبدأ الملاءمة المقامية الذي يشكل أحد الأسس المركزية في التداولية الحديثة، حيث تتحدد قيمة الخطاب بمدى توافقه مع ظروف التخاطب ومقتضيات المقام.

وتكشف هذه المعالجة أن اللغة في التصور الصوفي لا تُقوَّم وفق معيار الصحة اللغوية أو البلاغية فحسب، بل وفق قدرتها على تحقيق المقاصد الأخلاقية والتربوية. فالكلام المقبول هو الكلام الذي يجمع بين سلامة التعبير وحسن التقدير للمقام، ويخدم غايات التهذيب الروحي وتزكية النفس. ومن ثم تصبح الممارسة اللغوية جزءاً من عملية التربية الصوفية، لا مجرد أداة للتواصل أو نقل المعرفة.

ويظهر من خلال النصوص المدروسة أن الصمت لا يُطرح بوصفه نقيضاً للكلام، بل بوصفه ممارسة خطابية واعية تهدف إلى تنظيم التواصل وترشيد الاستعمال اللغوي. فالصمت في التصوف يمثل مهارة تواصلية قائمة على التمييز بين ما ينبغي قوله وما ينبغي الإمساك عنه، وهو ما يمنح المريد قدرة أكبر على التحكم في خطابه وإدراك أثر اللغة في تشكيل العلاقات الإنسانية[30].

وتنسجم هذه النتيجة مع التصورات التداولية الحديثة التي ترى أن الكفاءة التواصلية لا تقتصر على المعرفة بالنظام اللغوي، بل تشمل القدرة على توظيف اللغة بصورة مناسبة للسياق وللمقاصد التواصلية المختلفة. ومن هذا المنظور يمكن اعتبار آداب الكلام والصمت في الخطاب الصوفي شكلاً من أشكال التدريب المبكر على الكفاءة التداولية التي تمكن الفرد من إدارة التفاعل اللغوي بكفاءة ووعي[31].

مناقشة

تشير هذه النتائج إلى أن الخطاب الصوفي يتعامل مع اللغة بوصفها مسؤولية أخلاقية قبل أن تكون أداة للتعبير. ويتقاطع هذا التصور مع الاتجاهات الحديثة في التداولية التي تؤكد أن نجاح التواصل لا يعتمد على البنية اللغوية وحدها، بل على حسن إدارة السياق والعلاقات الاجتماعية، ومن ثم يمكن اعتبار الصمت الصوفي آلية لتطوير الكفاءة التداولية من خلال تعزيز الوعي بشروط إنتاج الخطاب.

4-3- الذكر وإعادة تشكيل الممارسة اللغوية:

تكشف النصوص المدروسة أن الذكر يمثل أحد أكثر الأنشطة اللغوية حضوراً في الحياة الصوفية، إذ يتجاوز كونه ممارسة تعبدية ليصبح آلية لإعادة تنظيم العلاقة بين اللغة والمعنى. فالذكر لا يقوم على التكرار الآلي للألفاظ، بل على إعادة إنتاجها داخل سياق روحي وتربوي يمنحها دلالات جديدة ومتجددة[32].

ومن الشواهد الدالة على ذلك ما أورده الغزالي بقوله: «ولا يزال اللسان رطباً بذكر الله حتى يصير الذكر غالباً على القلب»[33]. كما يذكر السهروردي أن «الذكر مفتاح الطريق، وبه تحيا القلوب»[34].

وتكشف هذه النصوص أن الذكر لا يُنظر إليه بوصفه مجرد ترديد لألفاظ محددة، بل باعتباره ممارسة خطابية مستمرة تعيد تشكيل العلاقة بين اللفظ والمعنى. فالتكرار هنا يؤدي وظيفة تداولية تتمثل في ترسيخ أنماط معينة من الإدراك والفهم، وإعادة إنتاج المرجعيات المشتركة التي تنتظم داخلها الجماعة الصوفية.

وقد أظهرت عملية التحليل أن التكرار المنظم للألفاظ والعبارات المرتبطة بالذكر يسهم في تكوين رصيد لغوي مشترك بين أفراد الجماعة الصوفية. كما يؤدي إلى ترسيخ منظومة من القيم والتصورات التي تصبح جزءاً من البناء المعرفي للمريد، بحيث تتحول اللغة إلى وسيلة لتشكيل الخبرة الروحية وإعادة إنتاجها.

ومن جهة أخرى، يسهم الذكر في بناء نوع من الانسجام الخطابي داخل الجماعة الصوفية، إذ تتكرر الألفاظ والعبارات المركزية بصورة تجعلها علامات لغوية مشتركة تحمل

معاني وقيمًا متفقاً عليها بين أفراد الجماعة. ويؤدي هذا التشارك إلى تعزيز الانتماء الجماعي وتسهيل تداول الخبرة الروحية والمعرفة الصوفية [35].

وتشير هذه النتيجة إلى أن الذكر يؤدي وظيفة تواصلية ومعرفية تتجاوز أبعاده التعبدية المباشرة، إذ يشارك في بناء الكفاءة التواصلية للمريد من خلال تدريبه على استيعاب المعاني المشتركة وإعادة توظيفها داخل السياقات المختلفة. وهو ما يتوافق مع التصورات الحديثة للكفاءة التواصلية التي تربط تعلم اللغة بالمشاركة الفعلية في جماعات الاستعمال اللغوي [36].

مناقشة

تكشف هذه النتائج أن الذكر يؤدي وظيفة لغوية تتجاوز حدود التعبد إلى بناء أنماط مستقرة من الممارسة الخطابية. فالاستعمال المتكرر لصيغ محددة يعزز التماسك المعجمي داخل الجماعة الصوفية ويؤدي إلى تكوين مرجعية لغوية مشتركة، وهو ما يمثل أحد المكونات الأساسية للكفاءة التواصلية داخل جماعات الخطاب. كما أن الذكر لا يقتصر على نقل المعاني الروحية، بل يسهم في إعادة إنتاجها وترسيخها من خلال التفاعل اللغوي المستمر بين أفراد الجماعة.

4-4- المعجم الصوفي وبناء الحقول الدلالية المتخصصة:

أظهرت نتائج التحليل أن الخطاب الصوفي يمتلك منظومة معجمية متخصصة تؤدي دوراً محورياً في تنظيم المعرفة الصوفية ونقلها داخل الجماعة. ولا تقتصر أهمية هذه المنظومة على كونها مجموعة من المصطلحات الفنية، بل تتمثل في كونها إطاراً مرجعياً يحدد طرائق الفهم والتأويل والتواصل بين أفراد الجماعة الصوفية [37].

ومن الشواهد الدالة على ذلك ما أورده القشيري في تعريف «الحال» بقوله: «الحال معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب، من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو شوق أو انزعاج أو هيبة» [38]. كما يعرّف «المقام» بأنه: «ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب وتكلف» [39].

وتكشف هذه الشواهد أن المصطلحات الصوفية لا تُستعمل وفق دلالاتها المعجمية العامة ، بل تُعاد صياغتها داخل نسق معرفي خاص يمنحها معاني اصطلاحية دقيقة. فالحال والمقام لا يحيلان إلى معانٍ لغوية متداولة فحسب ، وإنما يشيران إلى مفاهيم مركزية في بناء التجربة الروحية وتنظيم المسار التربوي للمريد.

كما بيّنت عملية التحليل أن اكتساب هذه المفاهيم لا يتم من خلال حفظ تعريفاتها النظرية فقط ، بل من خلال المشاركة التدريجية في الممارسات الخطابية للجماعة الصوفية. فالمريد يتعلم معاني هذه المصطلحات عبر سياقات استعمالها داخل النصوص والمجالس التعليمية والتفاعلات اليومية ، الأمر الذي يجعل تعلم المعجم الصوفي جزءاً من عملية الاندماج في الجماعة الخطابية.

ولا تكتسب هذه المفاهيم أهميتها من كثافة حضورها داخل النصوص فحسب ، بل من طبيعة العلاقات الدلالية التي تربط بينها. فمفاهيم مثل: الحال ، والمقام ، والذوق ، والمشاهدة ، والفناء ، والبقاء ، تشكل شبكة اصطلاحية مترابطة تسهم في تنظيم المعرفة الصوفية وتوجيه عمليات الفهم والتأويل. ومن ثم فإن اكتساب هذا المعجم يمثل شرطاً أساسياً لفهم الخطاب الصوفي والمشاركة في إنتاج معانيه.

وتشير النتائج كذلك إلى أن المعجم الصوفي يؤدي وظيفة هوياتية مهمة ، إذ يسهم في بناء شعور الانتماء إلى الجماعة الصوفية من خلال امتلاك لغة مشتركة تميز أفرادها عن غيرهم. فالمصطلحات المتخصصة لا تنقل المعرفة فقط ، بل تؤدي دوراً في ترسيخ الحدود الرمزية للجماعة والمحافظة على استمرارية تقاليدها الخطابية.

ومن هذا المنظور يمكن النظر إلى المعجم الصوفي بوصفه أحد أهم الآليات التي تسهم في بناء الكفاءة اللغوية للمريد ، لأنه يزوده بالأدوات المفهومية والتداولية اللازمة لفهم الخطاب الصوفي والمشاركة فيه بصورة فعالة.

مناقشة

تنسجم هذه النتائج مع التصورات الحديثة لجماعات الخطاب التي ترى أن امتلاك المعجم المتخصص يمثل أحد الشروط الأساسية للاندماج في الجماعات المعرفية. فالمصطلحات لا تؤدي وظيفة تسموية فحسب ، بل تنظم أنماط التفكير والتواصل داخل

الجماعة. كما تكشف النتائج أن تعلم المعجم الصوفي لا ينفصل عن تعلم الثقافة الصوفية نفسها ، إذ يكتسب المريد من خلاله طرائق خاصة في إدراك العالم وفهم التجربة الروحية.

4-5- اللغة الرمزية والكفاءة التأويلية:

أظهرت نتائج التحليل أن اللغة الرمزية تمثل إحدى السمات المركزية في الخطاب الصوفي ، إذ تلجأ النصوص الصوفية إلى الرمز والإشارة والاستعارة للتعبير عن خبرات روحية يصعب نقلها بواسطة اللغة المباشرة. وقد أسهم هذا النمط التعبيري في تشكيل منظومة تأويلية خاصة تتطلب من المريد امتلاك مهارات معرفية ولغوية تتجاوز الفهم الحرفي للنصوص[40].

ومن الشواهد الدالة على ذلك ما أورده الغزالي في حديثه عن حدود العبارة في نقل المعرفة الروحية بقوله: «فإن هذه الأحوال لا يمكن التعبير عنها حقيقة ، وإنما تذكر على سبيل التقريب والتمثيل»[41]. كما يذكر السهروردي أن «العبارات لا تفي بما يرد على القلوب من أنوار الحقائق ، وإنما يُعبَّر عنها بالإشارات والرموز»[42].

وتكشف هذه الشواهد أن الخطاب الصوفي يقوم على التمييز بين المعنى الظاهر والمعنى الباطن ، وبين العبارة المباشرة والإشارة الرمزية. فالنص لا يقدم معناه بصورة مكتملة ونهائية ، بل يفتح المجال أمام المتلقي للمشاركة في إنتاج الدلالة من خلال التأويل واستحضار المرجعيات المعرفية والثقافية المشتركة.

وقد أظهر التحليل أن اللغة الرمزية لا تؤدي وظيفة جمالية أو بلاغية فحسب ، بل تسهم في بناء الكفاءة التأويلية للمريد. فالتعامل مع الرموز والإشارات يقتضي امتلاك القدرة على تجاوز المعاني الحرفية واستكشاف المستويات الضمنية للخطاب ، وهو ما يدفع المريد إلى تطوير مهارات تفسيرية متقدمة ترتبط بالسياق وبالخبرة الروحية وبالمعارف المشتركة داخل الجماعة الصوفية.

كما بينت النصوص المدروسة أن الرمز يؤدي وظيفة تربوية، إذ يُستخدم أحياناً لحماية المعارف الصوفية من سوء الفهم أو التلقي غير المؤهل، وأحياناً أخرى لتحفيز المريد على البحث والتأمل والمجاهدة الفكرية. ومن ثم يصبح التأويل جزءاً من عملية التكوين الروحي واللغوي معاً.

وتشير النتائج إلى أن الكفاءة التأويلية التي يكتسبها المريد لا تنفصل عن الكفاءة اللغوية بالمعنى الموسع الذي تعتمده الدراسة. ففهم الخطاب الصوفي لا يتحقق من خلال المعرفة المعجمية أو النحوية وحدها، وإنما يتطلب القدرة على تفسير المعاني الضمنية وإدراك العلاقات الرمزية التي تنتظم داخل النصوص الصوفية.

مناقشة

تتوافق هذه النتائج مع التصورات التأويلية الحديثة التي ترى أن المعنى لا يُختزل في النص ذاته، بل يتولد من التفاعل بين النص والقارئ والسياق. كما تؤكد أن الخطاب الصوفي يشكل بيئة خصبة لتنمية الكفاءة التأويلية، إذ يدرب المريد على التعامل مع مستويات متعددة من الدلالة وعلى استثمار المعارف المشتركة في إنتاج المعنى. ومن ثم فإن اللغة الرمزية لا تمثل مجرد خاصية أسلوبية، بل تشكل آلية أساسية في بناء الكفاءة اللغوية والتواصلية داخل الجماعة الصوفية[3][4].

4-6- الخطاب الصوفي وبناء الكفاءة اللغوية للمريد (قراءة تركيبية):

أظهرت نتائج التحليل أن الخطاب الصوفي يؤدي دوراً يتجاوز نقل المعارف الروحية أو التعبير عن التجارب العرفانية، إذ يسهم بصورة مباشرة في بناء الكفاءة اللغوية للمريد من خلال منظومة متكاملة من الممارسات الخطابية والتداولية والتأويلية. فقد كشفت النصوص المدروسة أن عملية التكوين الصوفي تعتمد على تعلم أنماط مخصوصة من استعمال اللغة، ترتبط بآداب الكلام والصمت، وممارسة الذكر، واستيعاب المعجم الصوفي، واكتساب القدرة على فهم الرموز والإشارات وتأويلها.

وقد أظهر التحليل أن ضبط اللسان يمثل أحد المداخل الأساسية لبناء هذه الكفاءة، حيث يتعلم المريد التحكم في إنتاج الخطاب وفق مقتضيات المقام والسياق، بما يعزز وعيه بوظائف اللغة وآثارها الاجتماعية والأخلاقية. كما يسهم الذكر في إعادة تشكيل الممارسة

اللغوية من خلال ترسيخ أنماط من الاستعمال المتكرر للألفاظ والعبارات المركزية داخل الجماعة الصوفية، الأمر الذي يؤدي إلى بناء مرجعية لغوية مشتركة تسهم في التكوين والتنشئة[44].

ومن جهة أخرى، بيّنت النتائج أن المعجم الصوفي يؤدي دوراً محورياً في بناء الكفاءة التواصلية للمريد، لأنه يرسّخ شبكة من المفاهيم والمصطلحات التي تنظّم الخبرة الروحية وتوجّه عمليات الفهم والتأويل. فتعلم مصطلحات مثل: الحال، والمقام، والذوق، والفناء، والبقاء، لا يقتصر على اكتساب معانٍ اصطلاحية جديدة، بل يتضمن الاندماج في منظومة معرفية وخطابية متكاملة.

كما كشفت الدراسة أن اللغة الرمزية تشكل آلية مركزية في تطوير الكفاءة التأويلية للمريد. فالتعامل مع الإشارات والاستعارات والرموز يدفع المتلقي إلى تجاوز القراءة الحرفية للنصوص والبحث عن مستويات أعمق من الدلالة، وهو ما يسهم في تنمية قدراته على تفسير المعاني الضمنية وإنتاجها داخل الجماعة الصوفية.

وتُظهر هذه النتائج أن الكفاءة اللغوية في الخطاب الصوفي لا يمكن اختزالها في المعرفة النحوية أو المعجمية بالمعنى التقليدي، بل تتخذ طابعاً مركباً يجمع بين الأبعاد اللغوية والتداولية والتواصلية والتأويلية. فاللغة في التجربة الصوفية ليست مجرد وسيلة لنقل المعرفة، وإنما أداة للتكوين الروحي والاجتماعي، ومجالاً لاكتساب المهارات اللازمة للمشاركة في الحياة الخطابية للجماعة الصوفية.

ومن ثم يمكن القول إن الخطاب الصوفي يؤدي وظيفة تربوية ولسانية متكاملة، حيث يتعلم المريد من خلاله كيف يستعمل اللغة وفق مقتضيات المقام، وكيف يكتسب المصطلحات المتخصصة، وكيف يؤول الرموز والإشارات، وكيف يشارك في إنتاج المعاني داخل الجماعة. وبذلك يصبح الخطاب الصوفي فضاءً لتكوين الكفاءة اللغوية بمفهومها الموسع الذي يجمع بين المعرفة اللغوية والاستعمال الاجتماعي والتفاعل الجماعي.

مناقشة

تؤكد النتائج التركيبية للدراسة أن الخطاب الصوفي يمثل نموذجاً خاصاً من نماذج التنشئة اللغوية داخل الجماعات المعرفية المتخصصة. فاللغة لا تُكتسب فيه بوصفها نسقاً

من القواعد فحسب ، بل باعتبارها ممارسة اجتماعية وثقافية وروحية متكاملة. وتنسجم هذه النتيجة مع الاتجاهات الحديثة في تحليل الخطاب واللسانيات الاجتماعية التي تنظر إلى تعلم اللغة بوصفه عملية اندماج في جماعات الخطاب واكتساباً لطرائق التفكير والتواصل الخاصة بها[45].

كما تكشف النتائج أن التصوف الإسلامي قد طوّر عبر تاريخه الطويل منظومة لغوية وتواصلية متماسكة أسهمت في نقل الخبرة الروحية والمحافظة على استمرارية الجماعات الصوفية عبر الأجيال. ومن ثم فإن دراسة الخطاب الصوفي من منظور لساني وتداولي لا تفتح آفاقاً جديدة لفهم التراث الصوفي فحسب ، بل تسهم أيضاً في توسيع مجال الدراسات اللسانية العربية المتعلقة بالعلاقة بين اللغة والتنشئة الاجتماعية والثقافية.

5- مناقشة عامة:

تكشف نتائج الدراسة أن الخطاب الصوفي لا يمكن النظر إليه باعتباره خطاباً دينياً موجهاً إلى نقل المعارف الروحية فحسب ، بل يمثل منظومة خطابية متكاملة تؤدي وظائف تربوية ومعرفية وتواصلية متداخلة. فقد أظهر تحليل مدونة الدراسة (corpus)، أن اللغة داخل المجال الصوفي تتحول إلى أداة لتشكيل الخبرة الروحية وتنظيم العلاقات داخل الجماعة الصوفية ، وهو ما يؤكد أن الممارسة اللغوية في التصوف تتجاوز بعدها التعبيري لتصبح جزءاً من عملية التنشئة والتكوين. وتنسجم هذه النتيجة مع التصورات الحديثة لتحليل الخطاب التي ترى أن اللغة لا تعكس الواقع الاجتماعي فقط ، بل تسهم في إنتاجه وإعادة تشكيله من خلال الممارسات الخطابية المختلفة[46].

وقد بينت النتائج أن أحد أهم الأبعاد التي يقوم عليها الخطاب الصوفي يتمثل في إعادة تنظيم العلاقة بين الفرد واللغة عبر منظومة من آداب الكلام والصمت والإنصات. فالمريد لا يتعلم داخل المجال الصوفي قواعد التعبير فحسب ، بل يكتسب القدرة على توظيف اللغة وفق مقتضيات المقام والسياق ، وعلى إدراك الأبعاد الأخلاقية والتربوية للفعل اللغوي. ومن ثم يصبح استعمال اللغة جزءاً من مشروع أوسع يهدف إلى تهذيب النفس وتنظيم السلوك وبناء الوعي. ويؤكد هذا المعطى ما ذهبت إليه النظريات التداولية من أن

نجاح التواصل يرتبط بمدى ملاءمة الخطاب للسياق ولمقاصد المتخاطبين أكثر من ارتباطه بالسلامة الشكلية للغة[47].

كما أظهرت الدراسة أن الذكر يؤدي وظيفة تتجاوز الإطار التعبدي المباشر ليصبح ممارسة خطابية تسهم في إعادة إنتاج المعاني والقيم داخل الجماعة الصوفية. فالتكرار المنظم للألفاظ والعبارات لا يؤدي فقط إلى ترسيخ معانٍ دينية وروحية ، بل يشارك أيضاً في بناء معجم مشترك يسمح بتداول الخبرة الصوفية وإعادة إنتاجها بين أفراد الجماعة. ومن هذا المنظور يغدو الذكر آلية لتكوين الكفاءة التواصلية ؛ لأنه يرسخ المرجعيات المشتركة التي تحكم عمليات الفهم والتفاعل داخل المجال الصوفي[48].

وتؤكد النتائج كذلك أن المعجم الصوفي يمثل أحد أهم الأدوات التي تسهم في بناء الهوية الخطابية للجماعة الصوفية. فقد كشفت النصوص المدروسة عن حضور شبكة واسعة من المصطلحات الاصطلاحية التي تؤدي دوراً مركزياً في تنظيم المعرفة الروحية ونقلها. ولا تقتصر وظيفة هذه المصطلحات على تسمية التجارب والمقامات الصوفية ، بل تمتد إلى بناء رؤية مخصوصة للعالم وللعلاقة بين الإنسان والمعرفة والتجربة الروحية. وتنسجم هذه النتيجة مع ما تؤكده دراسات جماعات الخطاب من أن المعجم المتخصص يشكل أحد الشروط الأساسية لإنتاج المعرفة وتداولها داخل الجماعات المعرفية المتخصصة[49].

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن اللغة الرمزية تحتل موقعاً مركزياً في بناء الكفاءة التأويلية للمريد. فالرموز والإشارات والاستعارات الواردة في النصوص الصوفية لا تؤدي وظيفة بلاغية فحسب ، وإنما تشكل أدوات معرفية تساعد على تجاوز حدود الدلالة المباشرة نحو مستويات أعمق من الفهم. وقد أظهر التحليل أن المريد يتعلم تدريجياً كيفية التعامل مع هذه البنى الرمزية ، واكتساب مهارات التأويل التي تمكنه من استكشاف المعاني الضمنية للنصوص والتجارب الروحية. وهو ما يتوافق مع التصورات التأويلية الحديثة التي ترى أن إنتاج المعنى يتم من خلال التفاعل المستمر بين النص والقارئ والسياق الثقافي الذي ينتمي إليه[50].

وتسمح هذه النتائج بإعادة النظر في عدد من المقاربات التي تعاملت مع التصوف باعتباره ظاهرة فكرية أو روحية معزولة عن أبعادها اللغوية والتواصلية. فالمعطيات التي

كشفت عنها الدراسة تشير إلى أن الخطاب الصوفي يشتغل بوصفه نظاماً متكاملاً لإنتاج المعنى وتشكيل أنماط التواصل داخل الجماعة الصوفية. ولذلك فإن الاقتصار على القراءة التاريخية أو الفلسفية أو البلاغية للنصوص الصوفية لا يكفي لفهم وظائفها الحقيقية ، بل يتطلب الأمر الاستفادة من أدوات تحليل الخطاب والتداولية للكشف عن أبعادها التواصلية والتربوية والمعرفية.

كما تسهم النتائج المتوصل إليها في سد جانب من الفجوة البحثية التي كشفت عنها مراجعة الأدبيات. فبينما ركزت أغلب الدراسات السابقة على المضامين العقدية والفلسفية والرمزية للتصوف ، سعت هذه الدراسة إلى تحليل الوظائف الخطابية والتداولية التي يؤديها الخطاب الصوفي في بناء الكفاءة اللغوية للمريد. وبهذا المعنى فإن الدراسة لا تكتفي بوصف الخصائص اللغوية للنصوص الصوفية ، بل تقدم تفسيراً للدور الذي تؤديه هذه الخصائص في تشكيل الممارسات اللغوية وإنتاج المعنى داخل الجماعة الصوفية[1]5 .

وتقود المناقشة السابقة إلى تأكيد أن العلاقة بين التصوف واللغة ليست علاقة عرضية أو ثانوية ، بل علاقة بنيوية تتجلى في مختلف مستويات الخطاب الصوفي. فاللغة داخل هذا الخطاب لا تنقل المعرفة الروحية فحسب ، وإنما تشارك في إنتاجها وإعادة تشكيلها من خلال عمليات مستمرة من التعليم والتأويل والتفاعل الجماعي. ومن ثم يمكن النظر إلى الخطاب الصوفي بوصفه فضاءً لتكوين الكفاءة التداولية والتأويلية ، حيث يتعلم المريد كيفية استعمال اللغة ، وفهم دلالاتها الضمنية ، والتفاعل مع أنظمتها الرمزية داخل سياق ثقافي وروحي محدد.

الإجابة عن السؤال الرئيس وإسهام الدراسة

انطلاقاً من نتائج التحليل والمناقشة ، يمكن الإجابة عن السؤال الرئيس للدراسة بالقول إن الخطاب الصوفي يسهم في بناء الكفاءة اللغوية للمريد من خلال منظومة متكاملة من الممارسات التداولية والتأويلية التي تشمل ضبط اللسان ، وتنظيم العلاقات التخاطبية ، واكتساب المعجم الاصطلاحي المتخصص ، والتدرب على فهم الرموز والإشارات وتأويلها. وقد بينت الدراسة أن هذه الآليات لا تعمل بصورة منفصلة ، بل تتكامل داخل بنية خطابية واحدة تهدف إلى تكوين المريد معرفياً وتربوياً ولغوياً.

وتتمثل الإضافة العلمية لهذه الدراسة في نقل الاهتمام من تحليل المضامين الفكرية والرمزية للتصوف إلى تحليل الوظائف الخطابية والتداولية التي يؤديها داخل الجماعة الصوفية. كما تسهم في توسيع مجال الدراسات اللسانية العربية المتعلقة بالخطابات الدينية من خلال توظيف أدوات تحليل الخطاب والتداولية في دراسة مدونة (corpus) من النصوص الصوفية المؤسسة. وتكشف النتائج أن الخطاب الصوفي لا يمثل مجرد تراث ديني أو لغوي، بل يشكل نموذجاً متكاملاً لجماعة خطابية تنتج معارفها وقواعدها الخاصة في استعمال اللغة وإنتاج المعنى وتداوله.

6-خاتمة:

سعت هذه الدراسة إلى استكشاف العلاقة بين الخطاب الصوفي وبناء الكفاءة اللغوية للمريد من خلال مقاربة تداولية وخطابية اعتمدت على تحليل مدونة (Corpus) من النصوص المؤسسة في التراث الصوفي الإسلامي، ممثلة في *اللمع* للسراج الطوسي، و*الرسالة القشيرية* لعبد الكريم القشيري، و*إحياء علوم الدين* لأبي حامد الغزالي، و*عوارف المعارف* لشهاب الدين السهروردي. وانطلقت الدراسة من التساؤل الرئيس المتعلق بكيفية إسهام الخطاب الصوفي في تشكيل الكفاءة اللغوية للمريد من خلال ممارساته الخطابية وآلياته التأويلية.

وقد أظهرت نتائج التحليل أن الخطاب الصوفي لا يقتصر على نقل المعرفة الروحية أو التعبير عن التجربة العرفانية، بل يؤدي دوراً أساسياً في بناء أنماط مخصوصة من الممارسة اللغوية. ويتجلى ذلك في العناية بآداب الكلام والصمت، وتنظيم العلاقات التخاطبية، وتكوين معجم اصطلاحي متخصص، وتطوير القدرة على فهم الرموز والإشارات وتأويلها. كما كشفت الدراسة أن اللغة داخل المجال الصوفي تؤدي وظيفة تربوية ومعرفية تتجاوز بعدها التواصلي المباشر، إذ تصبح أداة لتشكيل الوعي وإعادة بناء الخبرة الذاتية للمريد. وقد استندت هذه النتائج إلى تحليل مجموعة من الشواهد النصية المستخرجة من مدونة الدراسة، مما أتاح تتبع الوظائف التداولية والتأويلية للخطاب الصوفي بصورة مباشرة، وربط الاستنتاجات النظرية بالمعطيات النصية التي كشفت عنها عملية التحليل.

وأظهرت النتائج كذلك أن مفهوم الكفاءة اللغوية في السياق الصوفي يتخذ أبعاداً أوسع من التصورات التقليدية المرتبطة بإتقان القواعد والمفردات، إذ يرتبط أساساً بالكفاءة

التداولية والتأويلية ، أي بالقدرة على استعمال اللغة وفق مقتضيات المقام ، وفهم المعاني الضمنية ، والتفاعل مع الأنظمة الرمزية والمعرفية التي تنتجها الجماعة الصوفية. ومن ثم فإن الخطاب الصوفي يمكن النظر إليه بوصفه فضاءً لتكوين مهارات تواصلية وتأويلية متقدمة تسهم في إدماج المريد داخل جماعة الخطاب الصوفية.

كما بينت الدراسة أن المقاربات اللسانية الحديثة ، ولا سيما تحليل الخطاب والتداولية ، تتيح إمكانات تفسيرية مهمة لفهم النصوص الصوفية تتجاوز حدود المقاربات التاريخية أو البلاغية التقليدية. وقد سمح هذا المنظور بالكشف عن الوظائف المعرفية والاجتماعية والتربوية التي تؤديها الممارسات الخطابية الصوفية ، وإبراز دورها في إنتاج المعنى وتنظيم التواصل داخل المجال الصوفي.

وعلى المستوى العلمي ، تسهم هذه الدراسة في سد جانب من النقص المسجل في الأدبيات المتعلقة بالعلاقة بين التصوف واللغة ، من خلال توظيف أدوات تحليل الخطاب والتداولية في دراسة مدونة (Corpus) صوفية كلاسيكية. كما تقدم إطاراً تفسيرياً يمكن الإفادة منه في دراسة الخطابات الدينية الأخرى ، وفي استكشاف العلاقة بين اللغة والتنشئة الثقافية وإنتاج المعرفة داخل الجماعات المتخصصة.

التوصيات

في ضوء النتائج المتوصل إليها ، توصي الدراسة بما يأتي:

- توسيع نطاق الدراسات اللسانية الموجهة إلى التراث الصوفي الإسلامي ، والانتقال من التركيز على الجوانب البلاغية والجمالية إلى دراسة الوظائف التداولية والخطابية للنصوص الصوفية .
- الإفادة من مناهج اللسانيات الحديثة ، ولا سيما تحليل الخطاب والتداولية واللسانيات الاجتماعية ، في إعادة قراءة التراث الصوفي والكشف عن أبعاده التواصلية والمعرفية .
- تشجيع الدراسات البينية التي تجمع بين اللسانيات والدراسات الإسلامية والتربية وعلم الاجتماع الثقافي من أجل فهم أكثر شمولاً لوظائف الخطاب الصوفي .

- العناية بإعداد مدونات رقمية للنصوص الصوفية الكلاسيكية بما يسمح بإجراء تحليلات معجمية وخطابية واسعة النطاق اعتماداً على أدوات اللسانيات الحاسوبية .
- توظيف نتائج الدراسات اللسانية للخطاب الصوفي في تطوير فهم أعمق للعلاقة بين اللغة والتنشئة الروحية وبناء الهوية الثقافية .

آفاق البحث المستقبلية

تفتح هذه الدراسة مجموعة من المسارات البحثية التي يمكن تطويرها مستقبلاً، ومن أبرزها:

- إجراء دراسات مقارنة بين الخطاب الصوفي والخطابات الدينية الأخرى للكشف عن أوجه التشابه والاختلاف في بناء الكفاءة التداولية والتأويلية .
- دراسة الخطاب الصوفي في البيئات المغاربية والأندلسية والمشرقية من منظور لساني مقارن يبرز الخصائص المشتركة والسمات المحلية .
- توظيف أدوات تحليل المدونات النصية واللسانيات الحاسوبية للكشف عن الأنماط المعجمية والتداولية المتكررة في النصوص الصوفية عبر العصور .
- دراسة الممارسات الخطابية داخل الطرق الصوفية المعاصرة وربطها بمفاهيم الهوية والتنشئة والتواصل في المجتمعات الحديثة .
- توسيع مدونة (Corpus) البحث لتشمل نصوصاً صوفية شعرية ونثرية من مدارس واتجاهات مختلفة ، بما يسمح ببناء تصور أكثر شمولاً عن أثر التصوف في تشكيل الممارسات اللغوية داخل الثقافة العربية الإسلامية .

وبذلك تؤكد الدراسة أن الخطاب الصوفي يمثل مجالاً خصباً للبحث اللساني المعاصر ، وأن فهم وظائفه التداولية والتأويلية يفتح آفاقاً جديدة لدراسة العلاقة بين اللغة والمعرفة والتجربة الروحية في التراث الإسلامي.

7- مصادر البحث ومراجعه:

أولاً: المصادر التراثية العربية

- السراج الطوسي ، أبو نصر عبد الله بن علي ، *اللمع في التصوف* ، تح: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، 1960م.

- السهروردي ، شهاب الدين عمر بن محمد ، *عوارف المعارف* ، تح: محمود بن الشريف ، دار المعارف ، القاهرة ، 1990م.

القشيري ، عبد الكريم بن هوازن ، *الرسالة القشيرية* ، تح: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ، دار المعارف ، القاهرة ، 1989م.

- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، *إحياء علوم الدين* ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ط ، د.ت.

- المحاسبي ، الحارث بن أسد ، *الرعاية لحقوق الله* ، تح: عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، 1987م.

ثانياً: المراجع العربية

- أركون ، محمد ، *النزعة الإنسانية في الفكر العربي* ، دار الساقي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، 2005م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية (الكتب)

- Asad, Talal, *The Idea of an Anthropology of Islam*, Center for Contemporary Arab Studies, Washington, 1986.

- Chittick, William C., *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*, State University of New York Press, Albany, 1989.

- Creswell, John W. & Poth, Cheryl N., *Qualitative Inquiry and Research Design: Choosing Among Five Approaches*, 4th Edition, Sage Publications, Thousand Oaks, 2018.

- Eco, Umberto, *A Theory of Semiotics*, Indiana University Press, Bloomington, 1979.

- Ernst, Carl W., *Sufism: An Introduction to the Mystical Tradition of Islam*, Shambhala Publications, Boston, 2011.

- Fairclough, Norman, *Language and Power*, 3rd Edition, Routledge, London, 2015.

- Gee, James Paul, *An Introduction to Discourse Analysis: Theory and Method*, 4th Edition, Routledge, New York, 2014.

- Knysh, Alexander, *Sufism: A New History of Islamic Mysticism*, Princeton University Press, Princeton, 2017.

- Levinson, Stephen C., *Pragmatics*, Cambridge University Press, Cambridge, 1983.

- Ricoeur, Paul, *Interpretation Theory: Discourse and the Surplus of Meaning*, Texas Christian University Press, Fort Worth, 1976.

- Schimmel, Annemarie, *Mystical Dimensions of Islam*, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1975.

- Searle, John R., *Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*, Cambridge University Press, Cambridge, 1969.

- Swales, John M., *Genre Analysis: English in Academic and Research Settings*, Cambridge University Press, Cambridge, 1990.

- Tracy, Sarah J., *Qualitative Research Methods: Collecting Evidence, Crafting Analysis, Communicating Impact*, 2nd Edition, Wiley-Blackwell, Hoboken, 2020.

- van Dijk, Teun A., *Discourse and Knowledge: A Sociocognitive Approach*, Cambridge University Press, Cambridge, 2016.

- Wodak, Ruth, *The Politics of Fear: The Shameless Normalization of Far-Right Discourse*, 2nd Edition, Sage Publications, London, 2021.

رابعاً: المقالات والدراسات العلمية

- Canale, Michael & Swain, Merrill, "Theoretical Bases of Communicative Approaches to Second Language Teaching and Testing", *Applied Linguistics*, Oxford University Press, Oxford, 1980, Vol. 1, No. 1, pp. 1–47.

- Hymes, Dell, "On Communicative Competence", in: Pride, J. B. & Holmes, J. (eds.), *Sociolinguistics*, Penguin Books, Harmondsworth, 1972, pp. 269–293.

8- الهوامش والإحالات:

1. Norman Fairclough, *Language and Power*, 3rd ed., Routledge, London, 2015, pp. 1–25.

2. Talal Asad, *The Idea of an Anthropology of Islam*, Center for Contemporary Arab Studies, Washington, 1986, pp. 1–15.

3. Annemarie Schimmel, *Mystical Dimensions of Islam*, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1975, pp. 3–18.

4. Alexander Knysh, *Sufism: A New History of Islamic Mysticism*, Princeton University Press, Princeton, 2017, pp. 15–42.

5. William C. Chittick, *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*, State University of New York Press, Albany, 1989, pp. 19–35.

6. Paul Ricoeur, *Interpretation Theory: Discourse and the Surplus of Meaning*, Texas Christian University Press, Fort Worth, 1976, pp. 71–88.

7. James Paul Gee, *An Introduction to Discourse Analysis: Theory and Method*, 4th ed., Routledge, New York, 2014, pp. 31–54.

8. Dell Hymes, "On Communicative Competence", in: J. B. Pride & J. Holmes (eds.), *Sociolinguistics*, Penguin Books, Harmondsworth, 1972, pp. 269–293.

9. Michael Canale & Merrill Swain, "Theoretical Bases of Communicative Approaches to Second Language Teaching and Testing", *Applied Linguistics*, Vol. 1, No. 1, 1980, pp. 1–47.

10. Annemarie Schimmel, *Mystical Dimensions of Islam*, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1975, pp. 177–214.

11. Umberto Eco, *A Theory of Semiotics*, Indiana University Press, Bloomington, 1979, pp. 58–86.

12. Norman Fairclough, *Language and Power*, 3rd ed., Routledge, London, 2015, pp. 50–72.

13. أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي ، *اللمع في التصوف* ، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، 1960 ، ص 43–62.

14. Stephen C. Levinson, *Pragmatics*, Cambridge University Press, Cambridge, 1983, pp. 9–35.

15. Michael Canale & Merrill Swain, "Theoretical Bases of Communicative Approaches to Second Language Teaching and Testing", *Applied Linguistics*, Vol. 1, No. 1, 1980, pp. 27–31.

16. John R. Searle, *Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*, Cambridge University Press, Cambridge, 1969, pp. 16–42.

17. John M. Swales, *Genre Analysis: English in Academic and Research Settings*, Cambridge University Press, Cambridge, 1990, pp. 21–32.

18. Teun A. van Dijk, *Discourse and Knowledge: A Sociocognitive Approach*, Cambridge University Press, Cambridge, 2016, pp. 91–112.

19. عبد الكريم بن هوازن القشيري ، *الرسالة القشيرية* ، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ، دار المعارف ، القاهرة ، 1989 ، ص 54–79.

20. Annemarie Schimmel, *Mystical Dimensions of Islam*, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1975, pp. 3–15.

21. William C. Chittick, *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*, State University of New York Press, Albany, 1989, pp. 117–142.

22. Carl W. Ernst, *Sufism: An Introduction to the Mystical Tradition of Islam*, Shambhala Publications, Boston, 2011, pp. 89–112.

23. John W. Creswell & Cheryl N. Poth, *Qualitative Inquiry and Research Design: Choosing Among Five Approaches*, 4th ed., Sage Publications, Thousand Oaks, 2018, pp. 65–89.

24.أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي ، *اللمع في التصوف* ، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، 1960 ، ص 23–37.

25. Norman Fairclough, *Language and Power*, 3rd ed., Routledge, London, 2015, pp. 88–112.

26. Sarah J. Tracy, *Qualitative Research Methods: Collecting Evidence, Crafting Analysis, Communicating Impact*, 2nd ed., Wiley-Blackwell, Hoboken, 2020, pp. 175–205.

27.أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي ، *اللمع في التصوف* ، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، 1960 ، ص 64–69.

28. عبد الكريم بن هوازن القشيري ، *الرسالة القشيرية* ، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ، دار المعارف ، القاهرة ، 1989 ، ص 82–90.

29. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، *إحياء علوم الدين* ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ط ، د.ت ، ج3، ص 15–32.

30. شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي ، *عوارف المعارف* ، تحقيق: محمود بن الشريف ، دار المعارف ، القاهرة ، 1990 ، ص 91–112.

31. أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي ، *اللمع في التصوف* ، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، 1960 ، ص 98–107.

32. عبد الكريم بن هوازن القشيري ، *الرسالة القشيرية* ، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ، دار المعارف ، القاهرة ، 1989 ، ص 101–116.

33. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، *إحياء علوم الدين* ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ط ، د.ت ، ج3 ، ص 58–73.

34. شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي ، *عوارف المعارف* ، تحقيق: محمود بن الشريف ، دار المعارف ، القاهرة ، 1990 ، ص 123–141.

35. William C. Chittick, *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination*, State University of New York Press, Albany, 1989, pp. 211–228.

36. Carl W. Ernst, *Sufism: An Introduction to the Mystical Tradition of Islam*, Shambhala Publications, Boston, 2011, pp. 133–150.

37. Alexander Knysh, *Sufism: A New History of Islamic Mysticism*, Princeton University Press, Princeton, 2017, pp. 201–226.

38. Annemarie Schimmel, *Mystical Dimensions of Islam*, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1975, pp. 287–308.

39. Paul Ricoeur, *Interpretation Theory: Discourse and the Surplus of Meaning*, Texas Christian University Press, Fort Worth, 1976, pp. 88–104.

40. Umberto Eco, *A Theory of Semiotics*, Indiana University Press, Bloomington, 1979, pp. 165–188.

41. James Paul Gee, *An Introduction to Discourse Analysis: Theory and Method*, 4th ed., Routledge, New York, 2014, pp. 119–144.

42. Stephen C. Levinson, *Pragmatics*, Cambridge University Press, Cambridge, 1983, pp. 161–186.

43. John R. Searle, *Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*, Cambridge University Press, Cambridge, 1969, pp. 66–82.

44. John M. Swales, *Genre Analysis: English in Academic and Research Settings*, Cambridge University Press, Cambridge, 1990, pp. 45–58.

45. Teun A. van Dijk, *Discourse and Knowledge: A Sociocognitive Approach*, Cambridge University Press, Cambridge, 2016, pp. 173–198.

46. Norman Fairclough, *Language and Power*, 3rd ed., Routledge, London, 2015, pp. 143–168.

47. Michael Canale & Merrill Swain, "Theoretical Bases of Communicative Approaches to Second Language Teaching and Testing", *Applied Linguistics*, Vol. 1, No. 1, 1980, pp. 28–39.

48. Dell Hymes, "On Communicative Competence", in: J. B. Pride & J. Holmes (eds.), *Sociolinguistics*, Penguin Books, Harmondsworth, 1972, pp. 281–289.

49. John M. Swales, *Genre Analysis: English in Academic and Research Settings*, Cambridge University Press, Cambridge, 1990, pp. 24–35.

50. Paul Ricoeur, *Interpretation Theory: Discourse and the Surplus of Meaning*, Texas Christian University Press, Fort Worth, 1976, pp. 95–112.

51. Teun A. van Dijk, *Discourse and Knowledge: A Sociocognitive Approach*, Cambridge University Press, Cambridge, 2016, pp. 201–218.